

وقائع وكواليس اختطاف طائرة زعماء الثورة الجزائرية في 22 أكتوبر 1956م.

د. بن عتو بلبروات*

تمهيد: لا تزال عملية القرصنة الجوية الفرنسية ضد الطائرة التي استقلها الزعماء الخمسة⁽¹⁾ للثورة الجزائرية يوم 22 أكتوبر 1956م، يشوبها الغموض؛ فالمصادر التاريخية العربية المعاصرة لحادثة الاختطاف؛ بعضها يقدم عموميات حول الموضوع، والبعض الآخر يتهم البلاط الملكي المغربي والرناسة التونسية أهما صريحا بتورطهما في عملية الاختطاف، وأخرى ترى أن هذين البلدين هما ضحية ثقتهن بفرنسا، وأن التواطؤ كان بين باريس والجزائر، بخلاف الرأي الذي يبرئ ساحة الحكومة الفرنسية. وفي هذا الصدد ارتأينا أن نبي موضوعنا هذا على جانب مهم في قضية الطائرة المختطفة قد تجاوزته - في اعتقادي - الكتابات العربية وتحديدًا الجزائرية، وتتعلق بوقائع وكواليس الاختطاف الجوي من بدايته إلى نهايته، لما تقدمه من توضيحات حول الموضوع، اعتمادًا على كتاب بعنوان: *Tournaux, J.R. Secrets d'Etat. Plon, Paris, 1960. pp: 127-135*

وقد قمنا بترجمة ما يتعلق بالاختطاف إلى اللغة العربية مع الحفاظ على المصطلحات والألفاظ والأفكار الاستعمارية كما وردت في الكتاب، وتسجيل ما يمكن تسجيله من نقد وتوضيح في الإحالات، كما حاولنا بادئ ذي بدء وضع عملية الاختطاف في سياقها التاريخي حتى تُفهم وقائع القرصنة الجوية الفرنسية.

1- رحلة قادة الثورة إلى مدريد في أكتوبر 1956: ذكر أحمد بن بلة في شهادته الحية بقناة الجزيرة القطرية أن قادة الثورة الجزائرية بالخارج وهم: أحمد بن بلة ومحمد بوضياف ومحمد خيضر وحسين آيت أحمد قد قرروا دراسة مقررات مؤتمر الصومام في مدريد - عاصمة إسبانيا - وقد التقى بهم هناك الصحفي الجزائري مصطفى الأشرف⁽²⁾، وفي خلال أيام 15-17 أكتوبر اتصل الأمير الحسن ولي العهد المغربي، بالوفد الجزائري - في غياب بن بلة الذي لم يلتحق بعد - وطلب منهم أن يكون لقاءهم بخصوص دراسة مسودة الاتفاق الجزائري - الفرنسي في الرباط لإطلاع والده " محمد الخامس " بالمسودة، ثم يسافر الجميع إلى تونس، وخصّص لهم طائرة لتقلهم إلى المدينة المذكورة أو أنه يذهب

* - أستاذ محاضرة أ في التاريخ الحديث والمعاصر - قسم التاريخ - جامعة الجليلي ليايس - سيدي بلعباس.

معهم⁽³⁾. وحسب منشور جبهة التحرير الوطني الجزائري، كانت فرنسا على علم بزيارة القادة الخمس للسلطان المغربي لأن الأمير مولاي الحسن قد زار باريس، وأطلع رئيس الحكومة الفرنسية "غي مولي Guy Molley" على نوايا والده بشأن الحل السلمي لمشكلة الجزائر⁽⁴⁾، مما يوحي بأن السلطان محمد الخامس وولده مولاي الحسن أرادا التعاون مع الحكومة الفرنسية التي تفاوضت شهورا مع جبهة التحرير الوطني⁽⁵⁾ في مصر ويوغوسلافيا وروما قصد التوصل إلى صيغة توافقية بين الطرفين من أجل حل الأزمة الجزائرية. لكن سلطان المغرب خدعته حكومة فرنسا والحكام الفرنسيون قد خانوا ثقة الملك فيهم⁽⁶⁾، وبالتالي نلاحظ أن جبهة التحرير الوطني الجزائرية تستبعد مؤامرة المؤسسة الملكية المغربية كما جاء في مذكرات "فتححي الديب" المصري.

2- رحلة قادة الثورة إلى المغرب الأقصى (أكتوبر 1956): في 19 أكتوبر 1956 وصل قادة الثورة الخمس إلى تطوان حيث استقبلهم الملك محمد الخامس⁽⁷⁾ بقصره، وفي الغد انتقلوا إلى الرباط لوضع اللمسات الأخيرة للقاء المرتقب مع الحبيب بورقيبة⁽⁸⁾، وحضور مؤتمر تونس لدراسة الحل السلمي بالجزائر الذي دعت إليه فرنسا والمغرب وتونس، وفي الوقت نفسه إعلان التضامن المغربي-التونسي للمسعى الجزائري الفرنسي. وكانت الخطة أن يسافر الجميع على متن الطائرة الملكية، وفجأة تقرر أن تقلع الطائرة الملكية دون الزعماء الخمسة للثورة الجزائرية على الساعة 17 من يوم 21 أكتوبر بحجة أن الملك محمد الخامس سيصطحب معه حريمه حسب شهادة بن بلة⁽⁹⁾، والحقيقة في اعتقادي أن القصر الملكي المغربي قد وصلته معلومات عن نية سلطات الاحتلال الفرنسي بالجزائر عن اختطاف أي طائرة يركبها قادة الثورة ولو كانت ملكية، فتقرر أن يسافر الملك محمد الخامس مع حاشيته إلى تونس دون القادة الجزائريين وذلك من باب الحفاظ على سلامة الملك، ولا يمكن إخفاء تحركات الملك لأن بالمغرب جمع كبير من الفرنسيين، متعاونين مع الفرنسيين بالجزائر كما كان يعمل بطارات المغرب كتقنيين عدة مخبرين فرنسيين تابعين لمصالح الاستعلامات الفرنسية، ويرتبطون بالديوان العسكري لوالي الجزائر روبر لاكوست Robert Lacoste⁽¹⁰⁾، ناهيك عن وجود مستشار فرنسي للملك محمد الخامس كان قائما على سجنه في مدغشقر، وصار صديقه وموضع ثقته⁽¹¹⁾.

3- إقلاع قادة الثورة إلى تونس واختطافهم بالجزائر يوم 22 أكتوبر 1956: استأجرت الشركة المغربية للنقل طائرة تجارية من نوع DC3 تمتلكها شركة الخطوط الجوية أتلان Air Atlas⁽¹²⁾ لنقل الزعماء الخمسة للثورة الجزائرية إلى تونس بصحبة صحفيين فرنسيين ومغاربة، يتراوح عددهم بين 20 إلى 25، أما الطاقم الفني فهم فرنسيون، وقد ركبها الزعماء الخمسة بأسماء ومهن مستعارة وبجوازات

سفر مغربية؛ فأحمد بن بلة استعار اسم محمد الغرباوي المولود بالدار البيضاء سنة 1920 ومهنته تاجر، ومحمد خيضر استعار اسم عبد الله الجليلي، المزداد بالقنيطرة سنة 1921 ومهنته ملاك، ومحمد بوضياف استعار اسم محمد علي المزداد بالدار البيضاء سنة 1921 ومهنته تاجر، وحسين آيت أحمد قد استعار اسم عمر بن عيسى المولود بولماس سنة 1921 ومهنته تاجر⁽¹³⁾. وذكر بن بلة أن ولي العهد وقتذاك مولاي الحسن قد ودعهم بالمطار، ولما حلقت الطائرة في الجو بدأت التحركات الفرنسية بالجزائر والتخطيط لإرغامها على الهبوط بمطار وهران أو الدار البيضاء بالجزائر العاصمة، وهنا تصادف معلومات مفصلة ودقيقة حول الكواليس الفرنسية بالجزائر بشأن اختطاف الطائرة، وفي الوقت نفسه وقائع القرصنة الجوية.

4- كواليس ووقائع اختطاف الطائرة DC3: ذكر الكاتب الفرنسي جوان رايون تورنو معلومات تاريخية تفصح كواليس الشخصيات العسكرية بالجزائر وحتى بباريس بشأن اختطاف طائرة القادة الخمسة للثورة الجزائرية عند توجههم من الرباط إلى تونس لحضور مؤتمر يتعلق بدراسة مسودة الاتفاق الفرنسي- الجزائري. وفي الوقت نفسه بين الكاتب الحوار الذي جرى بين السلطات العسكرية الفرنسية بالجزائر والطاقم الفني للطائرة المراد اختطافها. ونقدمها مترجمة إلى اللغة العربية مع الاحتفاظ بمقتنا في نقد أو توضيح ما نراه يدعو إلى ذلك في مساحة الإحالات كما ننبه إلى أن العناوين المسجلة هي من اجتهادنا قصد ضبط أفكار النص المترجم.

أ- الكواليس الفرنسية لاختطاف الطائرة: على الساعة 8 و30 دقيقة من يوم 22 أكتوبر 1956م وصل "بيير شوصاد Pierre Chaussade"، الأمين العام لوزارة الجزائر، إلى مكتبه، ولم يكده أن يباشر عمله حتى وقد عليه الكولونيل "دي كورنو Ducournau"، وهو مدير الديوان العسكري للجنرال "لاكوست"، وعميد القوات المظلية، والذي سيكون له الدور البارز في عملية اختطاف الطائرة، كما كان بصحبته رئيس الديوان المقدم "برانيت Branet".

*قال الضابطان الساميان للأمين العام: "ضربة رائعة سيدي الأمين العام، سيمر بن بلة على متن طائرة فوق رؤوسنا، يجب لدغه مع كل رفاقه الغزاة"⁽¹⁴⁾.

*الأمين العام: "تقولون بن بلة؟ مستحيل! كيف ذلك؟"⁽¹⁵⁾

*الضابطان: "إليكم. السلطان سيظهر على الساعة 10. 45 د.⁽¹⁶⁾ من سلا بصحبة بن بلة، خيضر وأقرانه، والقافلة تتجه لحضور ندوة تونس، والمركبة تطير في سماء الأرض الجزائرية.

* الأمين العام: "يستحيل النظر والأنف باتجاه السماء، والسادة يعبرون، رغم أن الطائرة هي ملك أجنبي".

* الضابطان: "كيف نفسر هذه الخفايا للرجال الذين يطرون مع الأوغاد⁽¹⁷⁾. إنهم متورطون في خيانة وطنهم".

* الأمين العام: "يجب الإخطار والنظر إلى الكل عن كثب".

أجرى الأمين العام اتصالا هاتفيا مع جنرال "فراندو Frandon" قائد الناحية العسكرية الجوية الخامسة، والذي كان يعلم بإقلاع الطائرة منذ الصبيحة البكرة. وأصبح عندئذ العميد جرمان Germain - مسؤول مصلحة التوثيق الخارجي والجوسسة المضادة (S.D.E.C.E) -⁽¹⁸⁾ على الخط. وتم إعلام الناحية العسكرية العاشرة. والأمر بقي ينتظر المبادرة؟ ولم تكن هيئة الأركان بذلك الحماس الشديد على أساس أن الأمر من شأن الحكومة.

وكان روبر لاكوست يوم 22 أكتوبر يتنقل عبر إقليم الدوردون Dordogne⁽¹⁹⁾ ولا يمكنه الدخول إلى الجزائر بسرعة، أما كاتب الدولة للطيران، السيد هنري لافورست Henry Laforest فقد أهدى زيارته الرسمية إلى لشبونة Lisbonne، أما السيد بورجيس مونوري-Bourgès- Maunoury وزير الدفاع الفرنسي فقد غادر منزله - رفقة مدير ديوانه السيد أبل توماس Abel Thomas - لحضور أشغال التحضير لحملة السويس بلندن⁽²⁰⁾، لكن السيد توماس تلقى على الساعة 07 صباحا، وأثناء المغادرة، مكالمة هاتفية من القيادة العامة لهيئة الأركان الفرنسية، تعلمه بعبور طائرة ملكية، وعلى متنها ركاب متمردون، الجو الجزائري قائلة له: "إنه استفزاز. لا يمكن للجيش أن يبقى مكتوف الأيدي. ماذا نفعل؟" ردّ توماس أبل: "إنها مسؤولية وزارة الجزائر. راقبوا واتخذوا الإجراءات التي ترونها مناسبة ومطابقة للقانون الدولي، وللتوجيهات العامة بخصوص أمن الحدود"⁽²¹⁾.

وأخيرا، التحق الجنرال لوريلو Lorillot بالسيد ماكس Max بياريس، وبدون تردد أعطى كاتب الدولة للقوات المسلحة الضوء الأخضر للجزائر والتنسيق مع الجنرال كونيي Cogny، القائد الأعلى للقوات الفرنسية بالمغرب⁽²²⁾.

ب- الأمر باعتراض طائرة السلطان المغربي: في الساعة 10 صباحا صدر أمر اعتراض طائرة السلطان على أساس أنه من قبيل الأوامر التقنية، لأن السلطات الفرنسية لم تستقبل ترخيصا بالطيران بسماء الأراضي الجزائرية، وهو ما يشكل خرقا وانتهاكا لقواعد المرور الجوي. علاوة على ذلك يمكن فتح النار على كل طائرة تطير بسماء الإقليم الجزائري دون ترخيص حسب تعليمات دائمة للجزائر.

وفي الساعة 10. 30 صباحا، تلقت منطقة الدفاع الجوي Z.D.A⁽²³⁾ التي يقودها الجنرال "ديستياك Destailac"، اتصالات غير رسمية حول خصوصيات طائرة السلطان المغربي "محمد الخامس"، فهي طائرة مستأجرة من طرف الحكومة الشريفة العلوية، ولا توجد خطة للرحلة. وفي الساعة 11. 30، تم تمرير خطة الرحلة السلطانية، وأجرت الناحية الجوية الخامسة مكالمات هاتفية تأمر بالمطاردة والتخلي عن الرصد والمراقبة. وقد تابعت الرادارات الفرنسية المركبة من خلال المجال الجوي الجزائري، وفي الوقت ذاته علمت المصالح الأمنية بالجزائر بأن بن بلة ورفاقه قد ركبوا طائرة من نوع DC3⁽²⁴⁾.

ج- بن بلة ورفاقه يسافرون لوحدهم: كان البلاط الملكي المغربي يفضل ركوب ضيوف الشرف لمحمد الخامس بطائرة السلطان، لكن الملك أدرك- وهو سياسي محنك- طبيعة الفضيحة وخطورتها⁽²⁵⁾، فأشار عليه صديقه ومستشاره الفرنسي "تويا بيارني Touya Béarnis" بحكمته ورقته، وهو لواء الدرك الفرنسي، كان قائما على سجن الملك محمد الخامس بمدغشقر، وأصبح مصدر ثقة الملك بعد تحريره، قائلا له: "اهدأ وارتح. لا توجد لديك موانع وقيود لأن ترفض مصاحبتي إلى تونس. بن بلة ورفاقه سيسافرون لوحدهم."

وفي الواقع اتخذت قيادات جبهة التحرير الوطني مكانا بطائرة تجارية سخرت لفائدتهم من طرف الحكومة الشريفة بعد أن أثارَت فضول العامة على إثر نشر خبرهم في جريدة البريد الوهراني Le courrier d'Oran من طرف أحد المغاربة.

د- معركة الرادارات: لازال الفرنسيون متمسكون بفكرة القبض على بن بلة ورفاقه لأنها فرصة سانحة لتوجيه ضربة عنيفة للمتمردين⁽²⁶⁾، وفي الساعة 13: بين مركز المراقبة الجهوي بالدار البيضاء (الجزائر) وضعية الطائرة DC3 حسب خطة رحلتها أو مسارها الجوي من: الدار البيضاء (المغرب)- سلا- وجدة- تونس. وعندئذ نُشر الإنذار.

وفي الساعة 14: تلقى مركز المراقبة الفرنسية بالجزائر، معلومات تفيد أن خطة رحلة طائرة DC3 قد عُُدلت على خط البليار، لأن المجال الجوي مقسم إلى مناطق معلوماتية، وتستحوذ كل واحدة حسب الاتفاقيات الدولية على موجات خاصة بها. ورأت الشركة الشريفة للنقل أنه من الحكمة التملص من الاستماع للجزائر قصد المرور إلى قطاع إشبيلية. وبدأ المركز الجهوي الفرنسي بالجزائر يتنصت لموجات المنطقة الاسبانية، وكانت كل محطات الرادارات الفرنسية جاهزة للاستماع والتنصت في حدود الساعة 15، وفي الساعة 16 دخلت وهران في الخط مع الطاقم الفرنسي لطائرة DC3 التجارية.

هـ- الحوار التاريخي بين سلطات الاحتلال وطائرة DC3:

وهران: "اختلفوا عطا، واهبطوا بالطائرة في وهران".

قائد الطائرة: "ما هذه الحكاية؟"

وهران: "لديكم خمسة أوغاد على متن الطائرة، ونريد القبض عليهم".

قائد الطائرة: "من يعطي الأمر؟"

وهران: "وزير الدفاع الوطني"، وهنا انتاب طاقم الطائرة وقائدها تردد شديد.

قائد الطائرة: "انتظروا، سنهبط بمطار بالمادي مايوركا." (27)

في الساعة السادسة مساءً، أقبلت طائرة DC3 من جديد، وأبلغت الشركة الشريفة للنقل بأن توقيت الوصول إلى تونس سيكون على الساعة التاسعة و25 دقيقة مساءً، وبعد حيرة أصابت السلطات الفرنسية بالجزائر، تم ربط خط الاتصال بين وهران وبرج المراقبة بالدار البيضاء [الجزائر]، وأعيد الحوار مع قائد طائرة DC3 ليكون هذه المرة من مدينة الجزائر العاصمة:

الجزائر: "تعالوا للهبوط بالجزائر".

قائد الطائرة: "باسم من تتكلمون؟"

الجزائر: "باسم الحكومة الفرنسية".

قائد الطائرة: "نطلب تدقيقاً".

الجزائر: "باسم الحكومة الفرنسية، وأوامر لاكوست، وزير الجزائر".

قائد الطائرة: "نحن نعمل لصالح شركة أجنبية، وهذه الأوامر لا تعيننا".

الجزائر: "نحتاج إلى الفلاحة" (28).

وعلى إثر ذلك أعلم قائد طاقم الطائرة DC3 شركته بالأمر المرسل إليه، ليتم إحالته إلى السلطات المغربية، فقامت وزارة النقل المغربية بإصدار أمر يقضي بعودة الطائرة إلى بالمادي مايوركا. لكن المراقبة العسكرية الفرنسية اعترضته، وأوقفت الاتصال بين الطائرة DC3 والسلطات المغربية (29)، وحينها أضحت الرباط معزولة ولا تعلم شيئاً. وعلى ضوء هذا التطور الخطير وفي الساعة السابعة مساءً طلب طاقم الطائرة من السلطات الفرنسية بالجزائر الترخيص لها بالعودة إلى المغرب الأقصى، فرد عليهم صوت مجهول من برج المراقبة بالدار البيضاء قائلاً: "تعالوا إلى الجزائر... أمر الحكومة. الهبوط بالجزائر... نكرر: أمر نفذ، أمر نفذ...".

وفي الساعة السابعة والنصف مساء يطلب طاقم الطائرة للمرة الثانية الإذن بالعودة إلى المغرب، وفي الساعة الثامنة قررت السلطات الفرنسية بالجزائر العاصمة إنهاء العملية قائلة: "الجواب سلمي بالنسبة للمغرب. تعالوا وحطوا بالجزائر. إنكم محميون من قبل الوزير".

قائد الطائرة: "وما مصير عائلاتنا بالمغرب؟".

الجزائر: "لا تقلقوا بشأنهم".⁽³⁰⁾

قائد الطائرة: "وإذا كان المتمردون مسلحون".

الجزائر: "تأكدوا من ذلك".

تظاهرت مضيئة الطائرة بجمع الأوراق في جيوب القاعد، فشد أحمد بن بلة بذراع المضيئة الشابة قائلاً لها: "لا تقلقي بشأننا آنستي"⁽³¹⁾؛ فشاهدت المضيئة أسلحة بجانب بن بلة مثل رشاش وبنادق سوداء. ولما علم طاقم الطائرة بأن الجزائريين مسلحين، استجوب قائدهم الدار البيضاء قائلاً: "ماذا يفعلون؟ إذا علموا بأننا وصلنا فوق سماء الجزائر (العاصمة)، وصوبوا أسلحتهم في ظهر الطيار". الجزائر ترد: "ستطير قوات المطاردة، وحينئذ ستضطرون إلى الهبوط"، وعند حلول الظلام بمنطقة البحر المتوسط، مرت طائرة الخطوط الجوية الفرنسية مرسلة رسالة إلى طائرة DC3: "ثمانينا يا شباب، لا تترددوا! هيا! نحن معكم بقلوبنا".

لاحظت إدارات الجزائر أن الطائرة DC3 تحاول العودة إلى المغرب، فألقت طائرتان مطاردتان: طائرة ميسترال وهران وطائرة B26، ولأجل التخويف - ما دامت طائرة DC3 تتلقى الرسائل - أصدرت هيئة الأركان الفرنسية بالجزائر أمراً بإطلاق النار على المحرك الطولي للطائرة في حالة هروبها، وأخذ قائد هيئة الأركان والجنرال فراندون والجنرال ماركورت Marecourt - قائد المجال الجوي للإقليم الجزائري - يتابعون العملية ثانية بثانية.

وكان السادة شوصاد ودي كورنو، وبرانيت من الحكومة العامة بالجزائر، يتتبعون تطورات العملية بالمطار، حتى وصلت طائرة روبير لاكوست، فعرضوا عليه القصة، فقال لاكوست: "جيد، يا لها من قصة، إنما عملية مدوية كدوي الرعد"؛ فقال له أحدهم: "سيدي الوزير، يمكن إعطاء أوامر مضادة". "أجاب لاكوست: "فات الأوان. بن بلة يخلق في سماء الجزائر، وقوات كبيرة علمت بما يحدث في البلاد، وستسبب لنا هذه العملية مشاكل كثيرة، لكن زعماء التمرد يوجدون فوق التراب الفرنسي، ويلزمنا واجبي بتوقيفهم. وسأوقفهم"، وأمام هذه الإجابة سارع "دي كورنو" إلى برج المراقبة مؤكدا الأوامر الصادرة. وحينئذ قال لاكوست: "لا تقتلوهم". ثم كلم الجنرال "فراندون"

هاتفيا قائلا: "ما هو قانون الملاحة الجوية الذي يجبر طائرة على الهبوط؟"؛ فأجاب فراندون: "يمكن الأمر بفتح النار على الحرك الطوي"، رد لاكوست: "لا تطلقوا النار، يمكن أن يتسبب ذلك في حادث، ولا أخطر بمقتل زعماء جبهة التحرير الوطني، وكذا الطاقم الفني والركاب. سيعتبرنا العالم بمرته قتلة، وأنا أطحن بالطائرة عمدا. وإذا لم تطع الطائرة DC3 الأوامر، انفوا حولها بطائرتنا المطاردة." ولما كانت طائرة DC3 تحلق فوق سماء تنس بغرب الجزائر، وتستعد للهبوط بمطار الدار البيضاء (بالجزائر) بسرعة فائقة لتتمكن من الوصول في الموعد إلى تونس، أقبلت طائرتان مطاردتان فرنسيتين، وقد لاحظ أحد زعماء جبهة التحرير الوطني ميلان الطائرة غير العادي يمينا وشمالا؛ فقامت المضيئة بإسدال الستائر، وأخذت تلعب الورق مع الجزائريين.

اتصلت طائرة DC3 بالدار البيضاء: "نحن نظير فوق سماء شرشال وكل شيء على ما يرام، ولا يلاحظون شيئا، ومجموعة من الإجراءات الأمنية تم اتخاذها على الأرض"؛ فردت الجزائر: "الكل مستعد".

وفي الساعة التاسع وعشرة دقائق مساء طلب قائد الطائرة من ركابه رجالا ونساء بربط أحزمة الأمان، وأعلمهم أنّ موعد الوصول إلى تونس قد اقترب، ولما بدأت الطائرة تفقد ارتفاعها، أخذ الجزائريون يلقون نظرة من خلال النوافذ، ولاحظوا في المطار انتشارا واسعا للعساكر فقال أحدهم: "لقد نظموا لنا استقبالا حارا".

وفي الساعة التاسعة وعشرين دقيقة مساء حطت الطائرة، وتبعها سيارات عسكرية من نوع "جيب Jeep" حاملة للرشاشات. وحينها لاحظ بن بلة الجنود الفرنسيين، ولما توقفت الطائرة، أطلقت الأضواء الداخلية، وسلطت الأضواء الساطعة القوية على جسم الطائرة، وأغلق الطاقم الفني باب الاتصال الداخلي، وقفز أعضاؤه من مخرج النجدة.

خرج اللواء "أندرس Andres" - قائد الأمن الجوي - مع رجاله المسلحين بالرشاشات قائلا: "استسلموا"؛ فانتاب زعماء جبهة التحرير الوطني الغضب واليأس، وصاروا يحاطين بالعساكر، وبدأ مفتشو مديرية الحراسة الاقليمية D.S.T.⁽³²⁾ ينادون المساجين: "بن بلة". فأجاب أحمد بن بلة ببنائة عسكرية: "حاضر"، ثم استطرد: "إنه عمل جيد، لم أكن أتوقع أن الفرنسيين قادرين على هذا"، وكان في المطار الجنرال "لوريو دوفيس Laurillot Devise" محاطا بأربع جنرالات آخرين، وهكذا فقد استقبل خمسة جنرالات فرنسيين خمسة رجال جزائريين من الفلقة، أما طاقم الطائرة فقد اقتيد أفرادهم

إلى منزل (فيلا) الزيتون؛ فوجدوا نساءهم وأطفالهم الذين أجلتهم السلطات المغربية على متن طائرة، وعندها انتهت عملية اختطاف طائرة DC3.⁽³³⁾

الخاتمة: على ضوء ما تقدم يمكن التنبيه إلى أن القرصنة الجوية الفرنسية لطائرة تُقل قادة الثورة الخمسة تُعتبر العملية الأولى من نوعها في التاريخ، وتمثل اعتداء صارخا على قانون الملاحة الدولية، وأن السلطات العسكرية الفرنسية كانت مستعدة لفتح النار على الحرك الطولي للطائرة لو تعنت الطاقم الفني الفرنسي الذي حاول إنقاذ ركاب الطائرة من القرصنة لكن سيطرة فرنسا الاستعمارية على المجال الجوي، وحيازتها لطائرات مقاتلة ومطاردة، واستمرار ممارستها لنفوذها على تونس والمغرب الأقصى المستقلين في السنة نفسها (1956م)، ونعتهم بالخيانة الوطنية إذا لم يتولوا بالطائرة بالجزائر وغموض مصير عائلاتهم بالمغرب الأقصى؛ كل هذه العوامل جعلت الطيارين الفرنسيين يستسلمون لرغبات الجيش الفرنسي بالجزائر.

وبالنسبة لعلاقة باريس بالجزائر في قضية الاختطاف فإننا نشتم رائحة التواطؤ بين السلطات العسكرية بفرنسا والسلطات العسكرية بالجزائر، وأن السلطات السياسية لم تكن تتحكم في مقاليد الحكم، وأن رهانات الجيش الفرنسي قد تجاوزت المسؤولين السياسيين، لذا قدم الوزير الفرنسي للشؤون المغربية والتونسية ألان سافاري Alain Savary استقالته من الحكومة، واستنكر رئيس الحكومة غي مولي عملية الاختطاف قائلا: "هذا غير ممكن، إذا كان الأمر كذلك، فسيكون حماقة جنونية."⁽³⁴⁾ خصوصا وأنه كان يخشى أن يدفع الحدث إلى هيجان الشعوب العربية. وبشأن مفاوضاتها مع جبهة التحرير الوطني من أجل إيجاد حل سياسي وسلمي للقضية الجزائرية، فإنه يعتبر من مراوغات فرنسا الاستعمارية إذ حاولت الحصول على هدنة مع الثورة الجزائرية للتفرغ لتحضيراتها العسكرية ضد مصر في إطار العدوان الثلاثي، ودعوها لمؤتمر تونس كان بهدف قطع رأس الثورة، وأن الثوار الجزائريون لن يلبثوا أن يضعوا السلاح، وقد أصاب أحمد توفيق المدني عندما توقع مسبقا فشل مؤتمر تونس، لأن فرنسا الواثقة بقدراتها العسكرية دعت إليه والثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى، وتحتاج إلى السلاح والانتشار الكامل على الأرض الجزائرية، وهذه الدعوة تكون منطقيا بعد تصاعد حدة الحرب بين الطرفين، أضف إلى ذلك أن فرنسا تدعو إلى التفاوض في وقت تنادي أكثر من ذي قبل بوجود بقاء الجزائر فرنسية⁽³⁵⁾.

كما لاحظنا أن السلطات المصرية كانت تعلم بالنوايا الفرنسية من وراء ندوة تونس خصوصا وأن دولة فرنسا الاستعمارية تجتهد دوليا لتنفيذ العدوان الثلاثي ضدها؛ فقد جاء في مذكرات أحمد

توفيق المدني وشهادات أحمد بن بلة أن الرئيس جمال عبد الناصر ومدير استخباراته فتحي الديب قد نصحوا أحمد بن بلة بأن لا يشارك مع رفاقه في ندوة تونس الذي أرادته فرنسا مكرا وخداعا، وورطت تونس والمغرب حيث لم تستطع قيادة الثورة رفض طلب الدولتين الشقيقتين، وبخاصة المغرب الذي يقدم دعما لجهة وهران⁽³⁶⁾.

الهوامش:

- (1) الزعماء الخمسة الذي أختطفوا هم: أحمد بن بلة، محمد خيضر، محمد بوضياف، حسين آيت أحمد، ومصطفى الأشرف، ومن خلال رواية بن بلة، يعد الأشرف مصطفى صحفيا جزائريا، وليس زعيما سياسيا للثورة الجزائرية، وبالتالي هناك أربع زعماء سياسيين كانوا على متن الطائرة وبصحبته صحفي جزائري.
- (2) أحمد منصور. الرئيس بن بيللا..يكشف عن أسرار ثورة الجزائر. دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، الطبعة الأولى، 1428هـ/2007م. ص 141.
- (3) المصدر نفسه، ص 142.
- (4) عبد الحميد زوزو. محطات في تاريخ الجزائر- دراسات في الحركة الوطنية والثورة التحريرية على ضوء وثائق جديدة- دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004. ص 497.
- (5) مثل جبهة التحرير الوطني في هذه المفاوضات كلا من محمد يزيد ومحمد خيضر، وتوصل الطرفان الجزائري- الفرنسي إلى صيغة أقرب إلى الاستقلال شريطة إجراء استفتاء شعبي مثلما حدث سنة 1962م، وبالتالي لو كانت نية فرنسا صادقة لوفرت على نفسها وعلى الشعب الجزائري ست سنوات من الحرب.
- (6) عبد الحميد، زوزو. المرجع السابق، ص 497.
- (7) نشير هنا إلى أن العلاقة بين أحمد بن بلة والملك محمد الخامس كانت جيدة ورائعة.
- (8) ذكر أحمد بن بلة أن علاقته بالحبيب بورقيبة لم تكن على ما يرام لأن رؤيتهما الفكرية مختلفة.
- (9) أحمد، منصور. المصدر السابق، ص 144.
- (10) محمد أمطاط، الجزائريون في المغرب ما بين سنتي 1830-1962، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2008م. ص 341.
- (11) Juan, Raymond Tournaux. Secrets d'Etat. Librairie Plon, Paris, 1960. p 130.
- (12) محمد، أمطاط. المرجع السابق، ص 40.
- (13) المرجع نفسه، ص 341. واستقى الكاتب الهوية المستعمارة لمصطفى الأشرف.
- (14) وهذا الكلام يستهدف الطائرة الملكية المغربية لما كان مقررا أن يسافر الجميع في طائرة واحدة.
- (15) إن الصعاب والتساؤل الذي أبداه الأمين العام يطرح احتمالين: إما أن خير مرور طائرة بن بلة ورفاقه على الجزائر كان مفاجئا لدى الفرنسيين بالجزائر. أو أنهم خططوا لذلك مع باريس لكنهم لم يتوقعوا أن تخطيطهم سيتحقق، لأن زعماء الثورة كانوا في مدريد وكان بإمكانهم السفر من هناك إلى تونس على متن طائرة أجنبية وطاقم غير فرنسي، ولو كان السفر من مدريد كما ذكرنا هل تخطط فرنسا لقرصنة جوية؟
- (16) تنفيذ الكتابات المغربية أن طائرة الملك المغربي أقلعت يوم 21 أكتوبر 1956 على الساعة 17، والكتابات الفرنسية تحدد الإقلاع يوم 22 أكتوبر على الساعة 10 و45، فهل يمكن اعتبار ذلك تأخير سببته استعدادات الفرنسيين بالجزائر لاختطاف الطائرة من تشنجات داخل القصر الملكي المغربي؟ وحتى أحمد بن بلة لا يتذكر توقيت إقلاع طائرة الملك، وكل ما أكدته أنها أقلعت قبل طائرة القادة الجزائريين.
- (17) يظهر أن الاستعمار الفرنسي لا يميز بين الرجال والأوغاد، أو أنه تعمد قلب المعادلة بما يخدم مصالحه.
- (18) تأسست هذه المصلحة الأمنية المسماة : Le Service de Documentation Extérieure et de Contre Espionnage في ديسمبر 1945.
- (19) يقع هذا الإقليم الغابي بجبوج غرب فرنسا.

(20) وتعني بذلك التحضير للعدوان الثلاثي على مصر الذي كان في 26 أكتوبر 1956، بمشاركة فرنسا والمجترات واسرائيل.

(21) وهذا يدل على أن السلطات العسكرية بباريس متورطة في عملية اختطاف الطائرة.

(22) يتضح جليا أن اختطاف الطائرة تم بتنسيق القوات الفرنسية في باريس والجزائر والمغرب الأقصى الحديث العهد بالاستقلال.

(23) Z.D.A : وتعني Zone de Défense Aérienne

(24) طائرة DC3 هي طائرة مستحدثة قبل الحرب العالمية الثانية ومن خصوصياتها، النقل ليلا.

(25) ويعني ذلك أن الملك محمد الخامس قد وصلته أخبار غزم سلطات الاحتلال الفرنسي لاختطاف الطائرة المقلدة للزعماء الخمسة وهو ما

جعل رئيس ديوانه يخصص طائرة أخرى للقادة الجزائريين ويسافرون لوحدهم.

(26) دائما ينعت الاستعمار الفرنسي ثوار الجزائر بالمتمردين عوض المقاومين، وكأنهم نسوا مقاومتهم للجيش النازي الألماني لما احتل باريس

سنة 1940.

(27) نستغرب عندما نجد أن أحمد بن بلة لم يشر في شهادته إلى هبوط الطائرة بمطار مايوركا وإقلاعها من جديد، كما ذكر أيضا أن للطائرة

مسار رحلة واحد ووحيد من الرباط إلى تونس. فهل أفتهم مشاغل ندوة تونس وجعلتهم لا يشعرون بشيء، أم أن الطيارين الفرنسيين، كذبوا

عليهم؟

(28) الفلاقة مصطلح استعماري أطلق على المجاهدين الجزائريين ويعني الخارجون عن القانون الفرنسي.

(29) وهنا نلاحظ أحد أشكال الهيمنة الفرنسية على المجال الجوي للمغرب الأقصى المستقل سنة 1956م.

(30) قامت السلطات المغربية بترحيل عائلات الطيارين الفرنسيين إلى الجزائر تحسبا لأعمال عنف في المغرب وهو ما حدث فعلا بفاس ومكناس

ومراكش ضد الفرنسيين.

(31) شعر أحمد بن بلة بأمر غير طبيعية، وما زاده قلقا تحذيرات عبد الناصر وفتحي الديب لما كان في القاهرة متوجها إلى مدريد ثم إلى تونس.

وحول تحذيرات مصر يمكن مراجعة:

فتحي الديب. عبد الناصر وثورة الجزائر. دار المستقبل العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 1984. ص 266.

(32) Direction de la Surveillance du Territoire : D.S.T. وهي مصلحة المعلومات بوزارة الداخلية، ومقرها المديرية

العامة للشرطة الفرنسية، وتاريخيا مكلفة بالجووسة المضادة.

(33) J.R Tournaux. Op.Cit., PP.127-135.

(34) محمد، أمطاط. المرجع السابق، ص 341.

(35) أحمد توفيق، المدني. حياة كفاف - سذكرات - دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، الجزء الثالث (مع ركب الثورة التحريرية)،

ص 308.

(36) المصدر نفسه، ص 310، 312.